السُّؤال

عناصر الموضوع

مفهوم السؤال	٢١٤
السؤال في الاستعمال القرآني	٢١٥
الألفاظ ذات الصلة	٢١٦
أنواع السؤال في القرآن	٢١٨
السؤال في الجانب العقدي	٢٢٠
السؤال عن الجانب التشريعي	٢٢٨
السؤال عن الجانب الإخباري	٢٣٩
السؤال عن المخلوقات الكونية	٢٤٦
مقاصد السؤال وآدابه	٢٤٨

مفهوم السؤال

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «السين والهمزة واللام كلمة واحدة، يقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألة، وتساءل الرجال أي سأل بعضهم بعضًا، ومن أكثر منه يقال له: رجل سؤالة وسؤله كهمزة: كثير السؤال»[١]. ولهذا فالفقير يسمى سائلاً إذا كان مستدعيًا لشيء، ولأنه من طبعه أن يسأل كثيرًا[٢]، حتى يعطى وتقضى حاجته، ومن يكثر السؤال يصبح ملحًا، وجمع السائل الفقير: السؤّال[٣]. وبه فسّر قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى:١٠] وفسّره الحسن بطالب العلم[٤]. فالسائل هو الطالب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العلماء السؤال بأنه استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة[٥]، أو ما يؤدّي إلى المال، فاستدعاء المعرفة جوابه على اللّسان، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللّسان خليفة لها، إمّا بوعد أو برد[٦].

يقول الراغب الأصفهاني: والسؤال على ضربين:

الأول: طلب مقال، وجوابه المقال: وهذا مثاله : قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]. وقال: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣٢].

والثاني: طلب نوال: وجوابه النوال: وعلى الثاني قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس:٨٩]. أي: أعطيتما ما سألتما[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص٥٠١.
وانظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢٩/ ١٥٨.
(٢) العين، الفراهيدي، ٧/ ٣٠١.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٤٨.
(٤) تاج العروس، الزبيدي، ٢٩/ ١٦٠.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٤٣٧.
(٦) الكليات، الكفوي، ١/ ٥٠١.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢١٠.

السؤال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سأل) في القرآن الكريم (١٢٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢١	﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾ [الملك:٨]
الفعل المضارع	٧٨	﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة:٦]
فعل الأمر	١٦	﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]
اسم الفاعل	٧	﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات:١٩]
اسم المفعول	٥	﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء:٣٦]
مصدر	٢	﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص:٢٤]

وجاء السؤال في القرآن الكريم على وجهين[٢]:

الأول: بمعناه اللغوي، وهو استدعاء معرفة أو ما يؤدي إليها، أو استدعاء مال أو ما يؤدي إليه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣].

الثاني: الحساب: ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢﴾ [الحجر:٩٢] أي: لنحاسبنهم على ما كان منهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٣٦- ٣٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٦٨-٢٦٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ١٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاستخبار:

الاستخبار لغةً:

يقول ابن فارس:«الخاء والباء والرّاء أصلان، فالأوّل ؛ من الخبر وهو العلم، والثّاني :من الخبراء، وهي الأرض اللّيّنة، وهو يدلّ على لينٍ ورخاوةٍ وغزرٍ. ويقال: استخبره أي سأله عن الخبر وطلب أن يخبره. والخبير العالم، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

الاستخبار اصطلاحًا:

أما اصطلاحًا فهو طلب خبر ما ليس عندك.

الصلة بين السّؤال والاستخبار:

يقول أبو الهلال العسكري: أن الاستخبار طلب الخبر فقط والسّؤال يكون طلب الخبر الأمر والنّهي وهو أن يسال السّائل غيره أن يأمره بالشي أو ينهاه عنه والسّؤال والأمر سواء في الصّيغة، وإنّما يختلفان في الرّتبة، فالسؤال من الأدنى في الرّتبة والأمر من الأرفع فيها[١].

يقول الراغب الأصفهاني: وكل استخبار سؤال، وليس كل سؤال استخبارًا[٢].

٢ الاستفهام:

الاستفهام لغةً:

هو مصدر من الاستفعال، وهو من الفهم، يقول ابن فارس: «الفاء والهاء والميم علم الشّيء»[٣]. يقال «استفهم أي سأله أن يفهّمه ، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهّمته تفهيمًا»[٤]. والاستفهام طلب الإفهام وهو أخص من الاستخبار[٥].

الاستفهام اصطلاحًا:

هو «استعلام ما في ضمير المخاطب»[٦]. أو هو «طلب المتكلم من مخاطبة أن يحصل

(١) الفروق اللغوية ص ٣٧.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٥/ ٤٦٦.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٥٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٥٩.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني، ٥/ ٤٦٦.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٤٩.

في ذهنه ما لم يكن حاصلاً عنده مما سأله عنه»[١]. أو هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن تصديقًا أو تصورًا، فإن كانت تلك الصورة هي وقوع نسبة بين الشيئين، فحصولها هو التصديق وإلا فهو تصور[٢].

الصلة بين السّؤال والاستفهام:

قال صاحب الفروق اللغوية: إن الاستفهام لا يكون إلّا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه ؛ وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم ،ويجوز أن يكون السّائل يسأل عمّا يعلم لا يعلم ، فالفرق بينهما ظاهر[٣].

(١) الكليات، الكفوي ص٩٧.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٩.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٧.

أنواع السؤال في القرآن

١ . السؤال الاستفهامي.

والاستفهام طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن، بواسطة أدوات استفهامية. ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [الماعون:١].

فقوله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ حرف يستعمل في موضع السؤال والاستفهام[١]؛ كقوله: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤].

والاستفهام يرد مجازًا على غير حقيقته، بحيث إن المستفهم لا يرجو من سؤاله حصول علم لم يكن قبل السؤال، والسؤال في هذا الصنف من الله تعالى ولا ريب، وقد أحصى علماء اللغة أغراضًا مجازية كثيرة يمكن أن يستعمل الاستفهام لها، ومن تلك الأغراض ما يلي[٢]:

- **الأمر**، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]. أي: انتهوا.
- **النهي**، كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣]. أي: لا تخشوهم. قال المرسي: «إن الأمر والنّهي والاستفهام كلها بمعنى السّؤال والاستدعاء»[٣].
- **النفي**، قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم:٢٩] أي: لا هادي لمن أضلّ الله. ومنه قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩] أي: لست منقذهم.
- **الإنكار**، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤٠].
- **التقرير**، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح:١]. أي: لقد شرح الله صدرك.
- **التهويل**، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:٣].
- **الاستبعاد**، كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ [الدخان:١٣] وغير ذلك. ومن الأمثلة الدالة عليه كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] هذا استفهام معناه التوبيخ لمن ادعى ذلك على المسيح، ويكذبهم المسيح فيكون ذلك توبيخاً لهم، وهو قوله: قال سبحانك أي: برأتك من السوء، ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]. أي: لست أستحق العبادة فأدعو الناس إليها[٤].

٢ . السؤال الإنكاري.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٦٢٢.
(٢) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ص٤٥.
(٣) المخصص، ابن سيده المرسي، ٥/ ٢٣٤.
(٤) الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٤٧.

وهو إنكار على المخاطب المستفهم عنه بالسؤال[1]، ومنه الأسئلة التي استخدمها موسى عليه السلام للتعبير عن إنكاره لما جرى أمام عينيه من تعدٍّ وظلم ظاهر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف:٧١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

إن أسئلة نبي الله موسى الإنكارية المتكررة هي التي جعلت الخضر عليه السلام لا يجد مناصًا من تبيين حكمة ما فعل لموسى عليه السلام، وهذا يدل على فاعلية السؤال وقوة تأثيره في القصة، إذ أثمر معرفةً وفهمًا وتفسيرًا لأمور كانت أسبابها غير معروفة وغير ظاهرة للعيان.

٣. السؤال الطلبي.

الطلب هو محاولة وجدان الشّيء[2] وأخذه، والسؤال الطلبي: هو سؤال يتضمن معاني الطلب أمرًا أو نهيًا[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] أي: فاطلب بالله ما تطلب[4].

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص١٢٦.
(٢) العين، الفراهيدي، ٧/ ٤٣٠.
(٣) السؤال في ضوء القرآن الكريم، وردة مصطفى كحيل، ص٢٤.
(٤) غرائب التفسير، الكرماني، ٢/ ٨٢٠.

ومن أمثلته، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [سبأ:٥٢] أي: التناول، وهو من بعد الطلب[5]. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨].

٤. السؤال التقريري.

«هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقر عنده»[6].

ومن أمثلته في القرآن، قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه:١٧].

فهذا السؤال هو سؤال تقريرٍ والحكمة في هذا السّؤال تنبيهه وتوقيفه على أنّها عصًا حتّى إذا قلبها حيّةً علم أنها معجزةٌ عظيمةٌ[7]. ويقال: «قررت عنده الخبر حتّى استقر ثبت بعد أن حققته له، وقرر المسألة أو الرّأي: صححه وحققه»[8].

٥. السؤال التوبيخي.

التوبيخ هو الملامة[9] والتهديد والتأنيب[10]، والسؤال التوبيخي هو توبيخ المخاطب على فعل وقع، لماذا وقع، أو

(٥) غريب الحديث، الحربي، ٢/ ٨٨٤.
(٦) السؤال في ضوء القرآن الكريم، كحيل، ص٢١.
(٧) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٥٨.
وانظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري، ٢/ ٥٤٦.
(٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٠٢/ ٧٢٥.
(٩) العين، الفراهيدي، ٤/ ٣١٥.
(١٠) الصحاح، الجوهري، ١/ ٤٣٤.

على ترك فعل ما كان ينبغي ألا يقع[1].

يقول قطرب: السّؤال ضربان: سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن:٣٩]. يعني: استعلامًا. وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر:٩٢] يعني: توبيخًا وتقريعًا[2].

ومن التوبيخ لأعداء الله قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات:١٥١-١٥٣].

السؤال في الجانب العقدي

هناك أسئلة كثيرة وردت في الخطاب القرآني حول القضايا الاعتقادية، والتي صدق وجزم بها المؤمن بدون ريب أو شك؛ لأنها من الأشياء التي يجب الاعتقاد بها ضرورة، ويمكن أن ندرجها حول أصول الإيمان ؛لأنها واجبات فرضت فرض عين على كل مسلم ومسلمة. ومن هذه الأسئلة ما كان حول الخالق سبحانه، وما يكون يوم القيامة ومتى تقوم الساعة، وما هو مصير العباد في ذلك، ناهيك عن السؤال الذي أحيل به الجواب إلى الله عز وجل، وهو سؤال الروح.

١. السؤال عن الخالق.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

أخرج ابن أبي حاتم أنه جاء رجلٌ إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: **يا رسول اللّه أقريبٌ ربّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فسكت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فأنزل اللّه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[3]، إذا دعوني، استجبت**

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص١٢٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٦٧.
وانظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري، ١/ ٤٧٥.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، رقم ٢٩٧٣.
قال الترمذي: حسن صحيح.

لهم[1].

والفاء في قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، جواب إذا، وفيه حذف تقديره: فقل لهم إنّي قريبٌ؛ لأنّه لا يترتّب على الشّرط القرب، إنّما يترتّب الإخبار عن القرب[2].

فالله عز وجل قريب من كل شيء، عالم بكل شيء، يصدقه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة:٨٥] وهو قرب العلم والإحاطة وارتفاع الجهات، لا قرب الذات[3].

قال أبو حيان: «والقرب المنسوب إلى اللّه يستحيل أن يكون مكانيًّا، وإنّما قصد منه سماع الدعاء، والإسراع في الإجابة»[4].

وفي هذا إرشاد لنناجيه ولا ننادي عليه برفع الصوت، فهو قريب لا يحتاج لكي ينادى عليه، كما أنه قريب من عابده، و(**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**)[5].

وفي الحديث القدسي: (**أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن اقترب إليّ شبرًا اقتربت منه ذراعًا، وإن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً**)[6]. فهذا قربه من عابده[7].

وقد ورد أن اليهود سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: كيف يسمع ربك دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام؟! فنزل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، هذا لما لم يعرفوا الصانع، ألا تراهم جعلوا له الولد، وجعلوا له شركاء، فخرج سؤالهم ، مخرج سؤال المتعنت، لا المسترشد»[8].

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**ليسألنّكم النّاس عن كلّ شيءٍ حتّى يقولوا: الله خلق كلّ شيءٍ فمن خلقه؟**) قال يزيد: فحدّثني نجبة بن صبيغ السّلميّ: أنّه رأى ركبًا أتوا أبا هريرة، فسألوه عن ذلك فقال: الله أكبر

وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٩٠.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ١/ ٣١٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢/ ٢٠٥.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٤٨.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢/ ٢٠٥. وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٢٥، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٤٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٢١٥.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في حسن الظن بالله عز وجل، رقم ٣٦٠٣.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٥٢، رقم ٨١٣٧.
(٧) التفسير القيم، ابن القيم، ص٢٥٦.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣٠٨.

ما حدّثني خليلي بشيءٍ ، إلّا وقد رأيته وأنا أنتظره، قال جعفرٌ: بلغني أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سألكم النّاس عن هذا فقولوا: الله كان قبل كلّ شيءٍ، والله خلق كلّ شيءٍ والله كائنٌ بعد كلّ شيءٍ)[1].

٢. السؤال عن يوم القيامة.

قال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف:١٨٧].

قال ابن عادل الحنبلي: «لما سمع المشركون أخبار القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل: ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً، متى تكون الساعة؟»[2].

والمعنى: في أي شيء هم من سؤال الساعة، ألم يعلموا أنك أنت من علاماتها، فإنك بعثت في نسيم الساعة، واسمك نبي آخر الزمان.

وأما قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧] حفي عن الشيء إذا سأل، وحفي بالشيء، عني به، وحفى بالشيء أيضًا حفاوة فرح به. قال الزجاج: «كأنك حفيٌّ، أي فرحٌ بسؤالهم»[3].

وفي الآية دلالة على أن المقصد من سؤال الكفار عن الساعة للتمويه والتلبيس على ضعفة الإيمان من الناس؛ لأنهم عرفوا أن وقت الساعة ليس بيد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن سألوه عنها ومتى وقتها وطلبوا الاستعجال بها، عرفوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بيده الجواب عنها فيستغلوا ذلك في التحريض ضد النبي صلى الله عليه وسلم ودينه.

كما دل إخفاء الساعة عن الخلق بما فيهم الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون ؛ لأن ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، ومثله كإخفاء الأجل والصلاة الوسطى وليلة القدر ، فالله عز وجل كتم وقت قيام الساعة عن الخلق ليسرع المكلفون إلى التوبة والطاعة فى جميع الأوقات ؛ فإنه لو علم وقت قيامها لتقاصر الخلق عنها وأخروا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم ٢١٦.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٢٠/ ١٤٩.

(٣) غرائب التفسير، الكرماني، ١/ ٤٣٠.

الطاعة[1].

هناك ثلاثة آراء في السائلين عن الساعة، فالرأي الأول: منهم من قال إن السائلين هم قريش ، قال أبو جعفر: عني بذلك قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش[2]. فسؤالهم ينبئ عن شكهم من قيامها، قال عز وجل: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:٦٦].

وقصدهم من طرح تلك النوعية من الأسئلة : التمويه والتلبيس على ضعاف الإيمان ، ونسوا أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت أنا والسّاعة كهاتين)[3].

يقول الشاطبي: «إن الله تعالى قال بعد سؤالهم عن السّاعة أيّان مرساها: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾﴾ [النازعات:٤٣] ، أي: إنّ السّؤال عن هذا سؤالٌ عمّا لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنّه لا بدّ منها، ولذلك لمّا سئل صلى الله عليه وسلم عن السّاعة ، قال للسّائل: (ما أعددت لها؟)[4]؛ إعراضًا عن صريح سؤاله إلى ما يتعلّق بها ممّا فيه فائدةٌ، ولم يجبه عمّا سأل»[5].

الرأي الثاني: السائلون هم اليهود[6]: قال ابن عباس: أتى قوم من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا؟ أي: متى قيامها؟[7].

وهذه الطائفة يمكن أن يكونوا من المؤمنين بالبعث، لكنهم لم يؤمنوا بالنبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

والرأي الثالث: السائلون هم من المؤمنين بالبعث والنشور والساعة ، وكان سؤالهم سؤال استهداء، كأنه لما قيل لهم: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار:١].

و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١].

قالوا: متى تكون الساعة؟ فنزلت هذه الآية[8].

هل في الآيتين تكرار لنفس الجواب؟

قال الخازن: عبر عن الجواب في السؤال الأول بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] وعن الجواب في السؤال الثاني بقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣] فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين؟

قلت: فيه فرق لطيف، وهو أنه لما كان

(١) روح البيان، إسماعيل حقي، ٣/ ٢٩٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٢٩١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والسّاعة كهاتين»، رقم ٦٥٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرّجل ويلك، رقم ٦١٦٧.
(٥) الموافقات، الشاطبي، ١/ ٤٥.
(٦) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٢٨٤.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٤/ ٢٦٦٠.
(٨) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٤١٥.

السؤال الأول واقعاً عن وقت قيام الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي. أي: يعلم جليّة أمرها، ومتى يكون على التّحديد[1].

فهو سبحانه قد استأثر به ولم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا.

ولما كان السؤال الثاني واقعاً عن أحوالها وشدائدها وثقلها ؛ عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله ؛ لأنه أعظم الأسماء[2] مهابة وجلالة وعظمة وهيبة.

٣. السؤال عن مصير العباد في الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات:٥٠-٥١].

وقال تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المدثر:٣٩-٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ [ص:٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٥-٢٨].

لا شك إن مصير العباد بيده سبحانه، فهو وحده القادر على محاسبتهم على القطمير والنقير، ولا يماري في ذلك إلا كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، على الأغلب أنها: ولهذا ما يؤيده قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة:١٣].

وفي ذلك اليوم فإن ملك الملوك سوف يخبر كل إنسان بجميع أنواع الأعمال التي قام بها في القديم ، وفي الحديث سواء كانت صغيرة أم كبيرة، ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

يقول السعدي: «فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩].

ويقول الله عز وجل عن أهل الجنة[4] بأنهم سوف يتساءلون تساؤل راحة وتنعم عن الفضائل والمعارف، وعما جرى لهم وعليهم في الدنيا، فالتعبير عنه بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتمًا[5].

فالآية تدل على أن هناك أوقات سمر واجتماع بين المؤمنين من أهل الجنة الذي خلت بالهم من كل المشاغل، فيتخلله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٥١٨.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٧٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٢١.
(٤) تفسير يحيى بن سلام، ٢/ ٨٣١.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٩٢. وانظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٥٩٨.

شراب، وفي وقت الشراب يحلو الحديث والتساؤل، ومن أسئلتهم أنهم يتذكرون أحوالهم في الدنيا، ويكون هذا من تمام النعمة عليهم، ويقول أحدهم: إنه كان لي قرين وصاحب سوء ملازم لي في الدنيا، وكان هذا الصاحب كافر بالبعث، بل منكر له، فهو ينكر على المؤمن إيمانه بالله ، ويوبخه على تصديقه بوعد الله وما أعد للمؤمنين في الجنة. يقول المراغي: «والحديث ذو شجون، فهم يتحادثون في شتى الفضائل والمعارف وفيما سلف لهم من شئون الدنيا، وما أحلى تذكر ما فات حين رفاهية الحال، وفراغ البال، واطمئنان النفس، وخلوّها من المخاوف العاجلة والآجلة»[1].

وتأكد هذا الموقف من خلال قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠﴾ [المدثر:٣٩-٤٠].

فمن تمام نعيم أهل الجنة الذين يجلسون في الغرفات آمنون مكرمون أنهم يتساءلون فيما بينهم عن المجرمين الذين حبسوا في سقر، بسبب تكذيبهم لدعوة الله، ورفضوا الاستجابة لأمر الله عز وجل.

يقول ابن عاشور: «ومعنى يتساءلون يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التّفاعل للدّلالة على صدور الفعل من جانبين، أي: يسأل أصحاب اليمين بعضهم بعضًا عن شأن المجرمين، وتكون جملة ما سلككم في سقر بيانًا لجملة يتساءلون»[2].

وقال تعالى في سورة الطور: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥﴾ [الطور:٢٥].

في المقابل نجد أن الله عز وجل يخبرنا عن أهل النار الطغاة المستكبرين الذين كانوا يعدون أنفسهم من الأشراف والرؤساء، يتساءلون فيما بينهم لماذا لا نرى رجالًا كنا نعدهم من الأشرار، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾ [ص:٦٢].

لحظة التذكر هذه تدل على حالة أسف وتوبيخ لأنفسهم ولذواتهم، إذ لم يجدوا المستضعفين والمخالفين والفقراء والمؤمنين بالله عز وجل معهم في جهنم. يقول ابن الجوزي: قال الفراء: «وهذا استفهام بمعنى التعجّب والتوبيخ، والمعنى أنهم يوبّخون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين»[3]. وصدق الله العظيم حين قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ۝٦٤﴾ [ص:٦٤].

قال الرازي معلقًا على الموقفين: «واعلم أنّه تعالى ذكر من أحوال أهل النّار أنواعًا فالأوّل: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٢٥.

(٢) تفسير المراغي، ٢٣/ ٥٩.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٨١.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص:٥٥]. وهذا في مقابلة قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص:٤٩]. فبيّن تعالى أنّ حال الطّاغين مضادٌّ لحال المتّقين»[1].

فالمؤمنون لهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٣١].

والكافرون الطغاة الظلمة لهم نار جهنم يصلونها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩].

وعليه فإنه لا بد من تصنيف الناس يوم القيامة ، كل حسب عمله وحسب إيمانه وتقواه، فهو سبحانه يعطينا سؤالًا استفهاميًّا استنكاريًّا فيقول تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم:٣٥].

وإجابة الاستفهام معروفة أنهم لا يستوون ؛ فليس المسلمون كالمجرمين. فالسؤال ينكر بشكل بليغ كيف يطالب هؤلاء مساواة المسلم مع المجرم، وكيف يستوي عند هؤلاء من أسلم نفسه لله واتبع منهجه وآمن بربه وبشرعه مع من خرج على منهج الله ورفض اتباعه وعصى وأبى، وأفسد في الأرض...لا يستوون.

أورد عمر سليمان الأشقر توجيهًا منهجيًّا لمن توهم أن في النصوص تعارض في موضوع مساءلة الكفار يوم القيامة، قال رحمه الله: «فإن قيل: قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون، فيكف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] مضاد لقوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلَنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٣] يتناقض مع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون:١٠١] ونحو ذلك من النصوص»[2].

قال القرطبي رحمه الله: «فنقول: ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض، وقد وفق أهل العلم بينهما بوجوه عدة:

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم بما لا يحبون بطريقة فيها تقريع

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٤٠٣

(٢) القيامة الكبرى، عمر سليمان الأشقر، ص٢٠٠.

وتوبيخ.

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة.

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي: «القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك»[(١)].

قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنيّة: «أوّل ما تبعث الخلائق على مقدار ستّين سنةً، لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثمّ يؤذن لهم في الكلام فيتكلّمون، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة:١٢] الآية، فإذا أذن لهم في الكلام تكلّموا واختصموا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزمر:٣١] عند الحساب وإعطاء المظالم، ثمّ يقال لهم بعد ذلك ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾ [ق:٢٨] يعني في الدّنيا، فإنّ العذاب مع هذا القول كائنٌ»[(٢)].

(١) التذكرة في أحوال الموتي وأمور الآخرة، القرطبي، ١/ ٣٢٩.
(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ٢/ ١٧٤.

٤. السؤال عن الروح.

قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء٨٥].

إن الله عز وجل أخبرنا عن الروح بعد أن سئل عنها رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعطنا عن كيفيتها علمًا، يقول أبو الحسن الأشعري: «إن الله لم يخبر عنها ما هي، لا أنها جوهر ولا أنها عرض»[(٣)]. ويقول فهد الرومي: «صرف الجواب عن ماهيتها؛ لأنه ليس من شئون العقل ولا من مداركه»[(٤)].

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الله وهو ابن مسعود[(٥)]، قال: **(بينما أنا أمشي مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم في حرثٍ، وهو متّكئٌ على عسيبٍ، إذ مرّ بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعضٍ: سلوه عن الرّوح، فقالوا: ما رابكم إليه، لا يستقبلكم بشيءٍ تكرهونه، فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضهم فسأله عن الرّوح، قال: فأسكت النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فلم يردّ عليه شيئًا، فعلمت أنّه يوحى إليه، قال: فقمت مكاني، فلمّا نزل الوحي قال: (﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ**

(٣) مقالات الإسلاميين، الأشعري، ص٣٣٤.
(٤) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، ٢/ ٧١٣.
(٥) فتح الباري، ابن حجر، ٨/ ٤٠١.
وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٢١٤.

﴿ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء:٨٥])[1].

قال ابن وهبٍ عن مالكٍ: لم يأته في ذلك جوابٌ، وقد قال بكر بن مضر في رواية ابن وهبٍ عنه: إنّ اليهود قالوا: سلوه عن الرّوح، فإن أخبركم فليس بنبيٍّ، وإن لم يخبركم فهو نبيٌّ، فسألوه فنزلت الآية[2].

السؤال عن الجانب التشريعي

القرآن الكريم كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ولهذا فإن آياته في غاية الدقة والإحكام وتشريعاته واضحة بينة فصلها الخبير العليم، من أجل إسعاد البشرية، فكان القرآن العظيم هو المصدر الأول للتشريع، ولأجل هذا ذكر القرآن عددًا من التساؤلات حول الجانب التشريعي كالإنفاق والرزق والمال والخراج والإرث، ثم ذكر القرآن الكريم تساؤلات عن اليتامى والخمر والميسر والمحيض والحلال والحرام وعن القتال في الأشهر الحرم وتقسيم الغنائم. يقول ابن عاشور: وجميع الآيات الّتي افتتحت بيسئلونك هي متضمّنةٌ لأحكام وقع السّؤال عنها فيكون موقعها في القرآن مع آياتٍ تناسبها نزلت في وقتها أو قرنت بها[3].

وتفصيل كل ذلك في المطالب التالية:

١. السؤال عن الإنفاق.

قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾ [البقرة:٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرّوح، رقم ٢٧٩٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٢١٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ١٩٠.

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة:٢١٩].

يقول الطبري: «يسألك أصحابك يا محمد، أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ وعلى من ينفقونه؟ فقل لهم: أنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفّيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه»[(١)].

فالصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على من ينبغي أن يفضلوا؟ فأعلم الله عز وجل أن أول من تفضّل عليه الوالدان والأقربون[(٢)].

وفي الآية دلالة على أن المنفق في سبيل الله لا بد أن ييسر الله له من ينفق عليه وعلى عياله.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

لأنه يقرض الله قرضًا حسنًا، ولن يضيع الله مال من أقرضه ، وصدق الله حين قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل:٢٠].

كما أن على الناس أن يعلموا أن المال في الحقيقة هو مال الله، ولكنه استخلفه عباده ليرى كيف يعملون.

وقد ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عبّاسٍ: «أنّ نفرًا من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، حين أمروا بالنّفقة في سبيل اللّه، أتوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبيّ اللّه: إنّا لا ندري ما هذه النّفقة الّتي أمرتنا بها في أموالنا فما ننفق منها؟ فأنزل اللّه في ذلك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩] وكان قبل ذلك ينفق ماله حتّى ما يجد ما يتصدّق به، ولا ما يأكل حتّى يتصدّق عليه»[(٣)].

وأورد الطبري بسنده عن السدي قال: «يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وإنما هي النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة»[(٤)].

٢. السؤال عن الإرث.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ

(١) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩١.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١/ ٢٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٢/ ٣٨١.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩٤.

﴿مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النساء:١٧٦].

ورد في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن جابر بن عبد الله مرض، فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «كيف أصنع في مالي يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء، حتّى نزلت آية الميراث»(١).

والثاني: أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بابنتين لها، فقالت: يا رسول قتل أبو هاتين معك يوم أحد، وقد استفاء عمهما مالهما، فنزلت، روي عن جابر بن عبد الله أيضاً(٢).

والثالث: أن عبد الرحمن أخا حسان بن ثابت مات، وترك امرأة ، وخمس بنات، فأخذ ورثته ماله، ولم يعطوا امرأته ، ولا بناته شيئا، فجاءت امرأته تشكو إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب عيادة المغمى عليه، رقم ٥٦٥١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، ٣/ ١٢٠، رقم ٢٨٩١، والترمذي في سننه، أبواب الفرائض،باب ما جاء في ميراث البنات، ٤/ ٤١٤، رقم ٢٠٩٢.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في الإرواء، ٦/ ١٢٢، رقم ١٦٧٧.

الإرث: ملك ما يتركه الميت لمن بعده ممن هو أولى به في حكم الله(٣). أو هو تركة الماضي للباقي(٤) بدون كسب.

قال أبو حيان الأندلسي: روي عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أنّه قال في خطبته: «ألا إنّ آية أوّل سورة النّساء أنزلها اللّه في الولد والوالد، والآية الثّانية أنزلها اللّه في الزّوج والزّوجة والأخوة من الأمّ، والآية الّتي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام»(٥).

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي اللّه عنهما، قال: «كان المال للولد، وكانت الوصيّة للوالدين، فنسخ اللّه من ذلك ما أحبّ، فجعل للذّكر مثل حظّ الأنثيين، وجعل للأبوين لكلّ واحدٍ منهما السّدس، وجعل للمرأة الثّمن والرّبع، وللزّوج الشّطر والرّبع»(٦).

٣. السؤال عن اليتامى.

يقول الله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

(٣) تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون، إلى آخر سورة السجدة، ص٦٩.
(٤) المصدر السابق ص ٢٣٢.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ١٥٠.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧٤٧.

﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٢٠].

ورد في تفسير عبد الرزاق عن قتادة قال: لمّا نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء:١٠] اعتزل النّاس اليتامى، فلم يخالطوهم في مأكولٍ، ولا مشروبٍ، ولا مالٍ، فشقّ ذلك على النّاس، فسألوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فأنزل اللّه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠][1].

وفي الآية دلالة على أن المقصد الأسمى من هذه الآية هو رعاية شأن اليتيم، والحرص على جلب المنافع له، فمن فعل ذلك فقد تخلق بأخلاق الصالحين والأنبياء ، وأهم موضوع في رعاية اليتيم مخالطته، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ لأن الناس خافوا من التعامل مع اليتامى خوف أكل أموالهم أو ظلمهم، فأخبرهم أن الإصلاح لشأنهم هو الحل، وذلك بكفالتهم ورعاية مصالحهم رعاية شاملة، بدءًا من الإصلاح الإنساني بمراعاة مشاعر اليتيم وإكرامه كإنسان له كيان محترم، ناهيك عن مراعاته كطفل فقد حنان الأبوة أو الأمومة.

ثم الإصلاح الاجتماعي في إيجاد مأوى ومسكن له ، فنحميه من التشرد والنوم في الطرقات، وكذلك الإصلاح المالي في كل جوانبه، فلا نأكل ماله ظلمًا، ومن فعل ذلك فسوف يعاقبه الله بالنار تأكل بطنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

بل إن القرآن أوصانا بعدم الاقتراب من ماله إلا في مجالات تنميته وزيادته، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

لما نزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، أشفق المسلمون من خلطة اليتامى فعزلوا لهم بيتًا، وعزلوا طعامهم وخدمهم وثيابهم، فشق ذلك عليهم جميعًا، فسألوا عن ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ الآية[2].

إن السؤال عن اليتامى فيه إضمار ، لأنه تعالى لم يبين في أي حكم[3] لكنه يحتوي على ما يعمل الناس في أموال اليتامى، من المخالطة وأنواع المصالح[4].

وإضماره -واللّه أعلم- أن يقال: يسألونك عن مخالطة اليتامى، يبين ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أن السؤال

(١) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٣٤٩.

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ١٢٠-١٢١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٢٠.

(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٧.

كان عن المخالطة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي: هو يعلم حين تخلط مالك بماله فهل نيتك إصلاح مالك أم ماله، ويعلم من يريد أن ينمي مال اليتيم ويربيه أم يفسده.

وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر، نجد أن الخضر عليه السلام يبذل قصارى جهده لبناء جدار في قرية رفضت ضيافته، ونحن نعلم كم في ذلك من مشقة وعنت، لكنه يبين مقصده من أفعاله تلك بأنه فعل ما فعل من أجل يتيمين، ومراعاة لمصالحهما.

يقول الله تعالى عنه: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢].

٤. السؤال عن الخمر والميسر.

قال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة:٢١٩].

يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار، فقل لهما إنّ في تعاطيهما ضررًا عظيمًا وإثمًا كبيرًا، ومنافع مادية ضئيلة، لأنّ ضياع العقل وذهاب المال، وتعريض البدن للمرض في الخمر وما يسببه القمار من خراب البيوت، ودمار الأسر، وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين لا يساوي ما فيهما من نفع قليل تافه[2].

ولهذا من حِكَمِ تسمية الخمر بهذا الاسم: أنها تستر العقل وتخامره وتخالطه وتغطيه[3].

والسؤال فيه إضمار لأنه تعالى لم يبين أي حكم، فكأنه قال: يسألونك عن شرب الخمر والعمل بالقمار، فقال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وهذا دل على أن السؤال كان عن شرب الخمر والعمل بالميسر[4].

فإذا تعارضت المصلحة والمفسدة روعي أكبرهما، فعطلت المفسدة الكبرى، ولو بإهمال مصلحة لا توازي تلك المفسدة[5].

وفي الآية تأكيد على أن الخمر والميسر إثم، لقوله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

وقد حرم الله الإثم، أي: الذنب الذي يؤثم صاحبه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ

(١) المصدر السابق ٢/ ١٢٠.

(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الرحيلي، ٢/ ٧٨٩.

(٣) مناظرة بين الإسلام والنصرانية، مجموعة من العلماء، ص٤٢٥.

(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ١٢٠.

(٥) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، عبد العزيز آل معمر، ٢/ ٦٨٦.

﴿رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وعلى كل فإنه قد يكون في الشيء المحرم فيه منفعة، ولكن ليس كل ما فيه منفعة يجوز استعماله، وقد قال الله عز وجل في الخمر والميسر: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩] فأخبر أن فيهما منافع، ولكن الضر أكبر ، وهكذا المحرمات، قد ينتفع الزاني بالزنا وهو محرم، فليس كل شيء فيه نفع يجوز فعله، بل يجب على الإنسان أن يتبع شرع الله، في الإباحة والحرمة، والغالب أن ما نهى الله عز وجل عنه ونهى عنه رسوله أن نفعه مستغرق في مضراته، وضره أعظم وأشد وأكثر. ولهذا فإن القاعدة الأصولية تقول: إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؛ ولذلك حرم الله تعالى الخمر مع أن فيه منافع، لكن المفسدة فيه كانت أعظم من المصلحة، ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

فمفاسد الخمر: من زوال العقل وانتشار الفساد والصد عن سبيل الله وعن الصلاة، أكبر من جلب المصلحة الكامنة في الربح الزهيد المترتب على بيع الخمر ونحوه، فيقدم درء المفاسد على المصالح.

٥. السؤال عن المحيض.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

كانت العرب في الجاهلية إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنوها في بيت ولم يجالسوها على فراش كفعل المجوس واليهود ، فسأل أبو الدحداح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: «يا رسول الله، كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾»[(١)].

وفي الآية دلالة على أن المراد بالاعتزال عن الحيض جماعهنّ، وذلك أن المجوس واليهود كانوا يجتنبون الحيّض في كل شيء، وكان النصارى يجامعوهن ولا يبالون بالحيض، فأنزل الله تعالى بالاقتصاد بين هذين الأمرين، وخير الأمور أوسطها[(٢)].

لكن مسألة استخدام الحائض ومباشرة بدنها إذا كانت مؤتزرة وبالاستمتاع بها فوق الإزار، فهذا مما أباحه الشرع. وقد دل الأمر باعتزال النساء في المحيض على أن السؤال عن المحيض إنما كان عن الاعتزال، وإن لم

(١) الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ١٥٦.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ١٥٨.

يكن في السؤال بيان المراد[١].

ومن الأحكام الخاصة بالرجال في هذه المسألة أنه كره العلماء الصلاة في ثياب النساء، مخافة أن يكون أصابها شيء من دم الحيض[٢].

٦. السؤال عن الحلال والحرام.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة:٤].

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك، يا محمد ، أصحابك: ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل؟ فقل لهم: أحل لكم منها الطيبات، وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح وأحل لكم أيضًا مع ذلك، صيد ما علّمتم من الجوارح، وهن الكواسب من سباع البهائم[٣].

وفي الآية دلالة على أن السؤال الحاصل يتضمن معنى القول، ماذا أحل لنا؟ وكان التفاتًا من الحاضر إلى الغائب للتنبيه ولتوجيه الذهن[٤].

والخطاب للنّبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به العرب، وكانت العرب تستقذر أشياء كثيرة فلا تأكلها، وتستطيب أشياء تأكلها فأحلّ اللّه عز وجل لهم ما استطابوه، ممّا لم ينزل بتحريمه تلاوةٌ مثل: لحوم الأنعام وألبانها، ومثل: الدّوابّ الّتي كانوا يأكلونها من الضّباب واليرابيع والأرانب والظباء وغيرها[٥].

كما دل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ : على أن سؤالهم كان عن الطيبات، ومما يصطاد من الجوارح[٦].

فالطيبات هي الحلال وكل شيءٍ لم يأت تحريمه في القرآن العظيم ولا في سنة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما سمي الحلال طيبًا، وإن لم يكن مستلذًا تشبيهًا بما يستلذ[٧].

وقال الراغب الأصفهاني: «هو الحلال الذي لا يعقب إثما»[٨].

ولا ضرر منه بالبدن والعقل. لكن المسألة الخطيرة هي أنه لا يجوز لنا أن نحكم بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم نبنى على ذلك التحريم والتحليل، فإننا لا نعرف مثلما يعرف خالقنا عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لنا، حتى لا نقع في دائرة الذين يستطيبون المسائل الضارة،

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٣٧٤.
(٢) غريب الحديث، الهروي، ١/ ٣١١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٥٤٣.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/ ٢٠٣٦.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ٣٠.
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٥٦.
(٧) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ١٤.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني، ٤/ ٢٧٠.

كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم والخمور[١].

ورد في سبب نزولها أن زيد بن الخيل الطّائي، وعدي بن حاتم الطّائي سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا: إنّا نصطاد بالكلاب، فماذا يحل منه وما يحرم؟ فنزلت الآية[٢].

قال ابن تيمية: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] جاء بعدها، قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤].

فأخبر أنّه أحلّها ذلك اليوم، وسورة المائدة مدنيّةٌ بالإجماع، وسورة الأنعام مكّيّةٌ بالإجماع، فعلم أنّ تحليل الطّيّبات كان بالمدينة لا بمكّة[٣].

يقول رشيد رضا مؤكدًا هذه القاعدة الأصولية: «إنه من المعلوم أنّ الله سخّر هذه الأرض وما فيها للنّاس ينتفعون بها، وإنّما المحظور عليهم هو ما يضرّهم، ولكنّ النّاس لا يقفون عند حدود الفطرة، بل دأبهم الجناية على فطرتهم، ومن ذلك أنّ العرب استباحت أكل الميتة والدّم المسفوح من الخبائث الضّارّة، وحرّمت على أنفسها بعض الطّيّبات كالبحيرة والسّائبة وغير ذلك، ولأجل هذا كانت الحاجة قاضيةً ببيان ما يحلّه الله وما حرّمه ممّا أحلّوه، وذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾»[٤].

إن صيغة المضارع المستعملة هنا للدلالة على تجدد السؤال، أي تكرره أو توقع تكرره، وعليه فوجه فصل جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أنها استئناف بياني ناشئ عن جملة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣].

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة:٣]، أو هي استئناف ابتدائي: للانتقال من بيان المحرمات إلى بيان الحلال بالذات، وإن كان السؤال لم يقع، وإنما قصد به توقع السؤال، كأنه قيل: إن سألوك عن كذا فجوابه كذا لتوقع السؤال[٥].

يقول أبو حيان الأندلسي: «والظّاهر أنّ المعنى: ماذا أحلّ لهم من المطاعم، لأنّه لمّا ذكر ما حرّم من الميتة وما عطف عليه من الخبائث، سألوا عمّا يحلّ لهم؟ ولمّا كان يسألونك الفاعل فيه ضميرٌ غائبٌ قال لهم بضمير الغائب»[٦].

وقوله: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ﴾؟ استفهام معلّق للسؤال، وإن لم يكن السؤال من أفعال القلوب إلاّ أنّه كان سبب العلم، والعلم يعلق، فكذلك سببه[٧].

(١) تفسير الشعراوي، ٥/ ٢٩٣٢.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني، ٢/ ١٢.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ١/ ١٦٢.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ١٤٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ٣٦.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ١٧٨.
(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٧/ ٢٠٣.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

قال الماتريدي: « اختلف في هذه الآية: هذا المسألة من المسائل التي وقعت ثم أجاب الله عنها، وكان الجواب ملتصقًا بالسؤال، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٤].

والله لم يتكلم بهذا الجواب في القرآن قبل أن يسألوا، بل بعد أن سألوا»[(١)].

وأما القول في قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: كأنهم سألوا رسول اللّه ، صلى الله عليه وسلم عما يحل من الجوارح؛ فذكر ذلك لهم، مع ما ذكر في بعض القصة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الكلاب، فأتاه أناس، فقالوا: ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية[(٢)].

قال الشّافعي رحمه الله: « أصل التحريم، نص كتاب، أو سنّة، أو جملة كتاب، أو سنّة، أو إجماع. قال اللّه عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤] الآية. وإنّما تكون الطّيّبات والخبائث عند الآكلين كانوا لها، وهم العرب الّذين سألوا عن هذا، ونزلت فيهم الأحكام، وكانوا يكرهون من خبيث المآكل ما لا يكرهها غيرهم»[(٣)].

وقال ابن كثير: « إنّ آية التّحريم، أعني قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣] إلى آخرها، محكمةٌ لم يدخلها نسخٌ ولا تخصيصٌ، وكذا ينبغي أن تكون آية التّحليل محكمةٌ، أعني قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤] فينبغي ألّا يكون بينهما تعارضٌ أصلًا وتكون السّنّة جاءت لبيان ذلك »[(٤)].

٧. السؤال عن القتال في الشهر الحرام.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧].

يسألونك يا محمد أصحابك عن قتال في الشهر الحرام وهو رجب[(٥)]. فقل يا محمد إن القتال فيه واستحلال الدم وسفكه فيه عظيم عند الله[(٦)].

(١) شرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين، ص٤١٨.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٥٧.
(٣) الأم، الشافعي، ٢/ ٢٧١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩٩.
(٦) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٠.

لكن الصد عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم عنه إذ أنتم أهله وولاته، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم[1].

وفي الآية دلالة على أن ظاهرها يحرم القتال في أشهر الحج، لكن فيه دليل على حل القتال بقوله: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة:٢١٧].

والفتنة الشرك، أي : إن الشرك فيه أكبر وأعظم من القتل[2].

أنّ رجلًا من بني تميم أرسله رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في سريّةٍ، فلقي ابن الحضرميّ يحمل خمرًا من الطّائف إلى مكّة فرماه بسهم فقتله، وذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة وأوّل يوم من رجب، وكان بين رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وبين قريشٍ عهدٌ، فقالت قريشٌ: أفي الشّهر الحرام قتلتم ولنا عهدٌ؟ فأنزل اللّه عز وجل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٧] إلى قوله: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾ [البقرة:٢١٧] يقول: كلّ هذا أكبر من قتل ابن الحضرميّ، ثمّ قال: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ [البقرة:٢١٧]. يعني: الكفر باللّه، وعبادة الأوثان أكبر من هذا كلّه[3].

(١) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٥.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٦٥.
(٣) تفسير مجاهد، ص٢٣١.

فهذه القضية أظهرت قضيتين:

الأولى: القتال في الأشهر الحرم وحرمة القتال فيه.

والقضية الثانية: متعلقة في الكفر بالله عز وجل والصد عن سبيله وإيذاء العباد والبلاد لدرجة الفتنة عن الدين وإخراج الناس من أوطانهم وديارهم.

فهذا السؤال أجاب عن هذه المعادلة بشكل جريء وبين أن الصد عن سبيل الله وفتنة الناس عن دينها أعظم حرمة من التستر وراء حرمة القتال في الأشهر الحرم. إنها واقعية الإسلام العظمى التي لا تخدم المثاليات الميتة، بل هي الحلول المناسبة لكل حالة ولكل موقف ولكل ظرف، فلكل حادثة سياقها الذي خرجت منه ولا يجوز الحكم عليها بحكم التاريخ.

٨. السؤال عن تقسيم الغنائم.

قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ [الأنفال:١].

السؤال عن الغنائم يحتمل وجهين:

الأول: يحتمل أنهم سألوا عن حلها وحرمتها؛ لأنها كانت لا تحل في الابتداء.

والثاني: يحتمل السؤال عن قسمتها، وهو ما روي في بعض القصة أن الناس كانوا يوم بدر ثلاثة أثلاث: ثلث في نحر العدو،

وثلث خلفهم ردءًا لهم، وثلث مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يحرسونه، فلما فتح اللّه عليهم اختلفوا في الغنائم، فقال الأوائل: نحن أحق بالغنائم، نحن ولينا القتال، وقال من كان ردءًا لهم: لستم بأولى بها منا، وكنا لكم ردءًا، وقال حرس رسول اللّه: لستم بأحق بها منا، كنا نحن حرسًا لرسول اللّه فتنازعوا فيها إلى رسول اللّه، فنزل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١][1].

وفي الآية دلالة على أن سؤالهم يتضمن العطاء، فكأنهم يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: أعطنا، لكن الله جعل الخمس مخصوصًا لأهله صلى الله عليه وسلم، وذلك على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال:٤١] ، فقد بين أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قسم هذا الخمس على خمسة أنصباء، خمسٍ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وخمس ليتامى المسلمين لا ليتامى آل النبي صلى الله عليه وسلم ، وخمس في المساكين - مساكين المسلمين لا مساكين النبي صلى الله عليه وسلم وخمس لابن السبيل.

قال الشّافعي رحمه الله: « قال محمد بن إسحاق: سئل عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، انتزعه اللّه منا حين اختلفنا، وساءت أخلاقنا، فجعله اللّه عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم يجعله حيث شاء»[2]. أي: كانت غنائم معركة بدر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء، بعد أن سلمها المسلمون وردها صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على فقرائهم.

هذه الحادثة حصلت للصحابة بعد معركة بدر الكبرى، والتي كانت بلا شك مفصلًا عظيمًا في تاريخ هذه الأمة بل كانت أعظم معركة في تاريخ الإسلام، ولهذا سميت بيوم الفرقان، الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنتجت أعظم رجال بعد الأنبياء، وساهمت في تحرير الإنسانية من عبادة العباد إلى عبادة الله عز وجل ، وهذا السؤال القرآني في بداية سورة الأنفال جاء ليبين لنا الحالة البشرية بكل رغباتها وشهواتها الفطرية التي لا تغيب عن الصحابة رغم معاشرتهم الطويلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اختلفوا على سيف ورمح ودرع ؛ ولهذا جاء العتاب من رب الأرباب وأسند الأمر إلى الله ورسوله.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١/ ٣١٨.

(٢) الأم، الشافعي، ٧/ ٣٥٣.

السؤال عن الجانب الإخباري

يتناول هذا المبحث ثلاث قضايا إخبارية تاريخية لكنها في غاية الأهمية:

القضية الأولى السؤال عن أصحاب الكهف وبيان سر هروبهم من بلدتهم التي كانوا يسكنون فيها إلى كهف مظلم، تاركين المال والجاه والغنى والسلطان والطعام والشراب والنوم الهنيء إلى حيث لا مال ولا جاه ولا طعام بل ظلام ونوم على التراب.

أما السؤال الثاني فكان عن قضية إخبارية عن ملك عادل متواضع، يجوب الأرض شرقًا وغربًا، لا هم له سوى مساعدة الناس وإنقاذهم من الجهل والعدوان والظلم.

أما السؤال الثالث، فكان عن قصة نبي ورسول من أولي العزم، ظن في وهلة أنه أعلم الأرض، فأخبره الله تعالى أن هناك من هو أعلم منه، فأظهر حرصه العظيم على اتباع ذلك العالم الذي آتاه الله عز وجل من لدنه علمًا، رغم بعد المسافة بينهما.

والمدقق يجد أن المقصد من هذه الأسئلة أن تكون دليلًا قويًّا على صدق نبوة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. والمطالب المتعلقة بهذا المبحث:

١. السؤال عن أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ٩-١٤].

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف:١٩].

ذكر محمّد بن إسحاق سبب نزول هذه القصّة مشروحًا ، فقال كان النّضر بن الحارث من شياطين قريشٍ وكان يؤذي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث رستم وإسفنديار، وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسًا ذكر فيه اللّه وحدّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النّضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا واللّه يا معشر قريشٍ أحسن

حديثًا منه، فهلمّوا فأنا أحدّثكم بأحسن من حديثه، ثمّ يحدّثهم عن ملوك فارس، ثمّ إنّ قريشًا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيطٍ إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلوهم عن محمّدٍ وصفته وأخبروهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتّى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمّدٍ ، فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاثٍ: عن فتيةٍ ذهبوا في الدّهر الأوّل ما كان من أمرهم فإنّ حديثهم عجبٌ، وعن رجلٍ طوّافٍ قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الرّوح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبيٌّ وإلّا فهو متقوّلٌ، فلمّا قدم النّضر وصاحبه مكّة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمّدٍ، وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (أخبركم بما سألتم عنه غدًا) ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلةً حتّى أرجف أهل مكّة به، وقالوا: وعدنا محمّدٌ غدًا واليوم خمس عشرة ليلةً فشقّ عليه ذلك، ثمّ جاءه جبريل من عند اللّه بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة اللّه إيّاه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرّجل الطّوّاف»[1].

يقول فخر الدين الرازي: «اعلم أنّ القوم تعجّبوا من قصّة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرّسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنّهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط، فلا تحسبنّ ذلك فإنّ آياتنا كلّها عجبٌ، فإنّ من كان قادرًا على تخليق السموات والأرض ثمّ يزيّنها ثمّ يجعلها بعد ذلك صعيدًا جرزًا خاليةً عن الكلّ كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفةٍ مدّة ثلاثمائة سنةٍ وأكثر في النّوم، هذا هو الوجه في تقرير النّظم، واللّه أعلم»[2].

وقد اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف، فقال بعضهم: أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى، وكان لهم ملك عابد وثن، دعاهم إلى عبادة الأصنام، فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاستخفوا منه في الكهف[3].

والفتية: جمع فتى، والفتى: بمعنى الكامل من الرجال[4]. قال سهل: إنما سماهم فتية لأنهم آمنوا به بلا واسطة، وقاموا إليه بإسقاط العلائق عن أنفسهم[5].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٧٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٠٥.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٦٦.
(٥) تفسير التستري، ١/ ٩٧.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف:١٩] بعثهم الله عز وجل من رقدتهم ونومهم الذي يشبه الموت؛ وحفظ أجسادهم وأشعارهم وأبشارهم وثيابهم، حيث لم يفقدوا رغم طول الزمان جزءاً من أحوالهم وهيئاتهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين[١]، فحفظهم من البلى على طول الزمان[٢]، لما علم ما يكون منهم، وهو التساؤل[٣].

ويسأل بعضهم بعضًا عن مقدار نومهم، واللام في: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾ لام العاقبة، كاللام في: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]؛ لأنهم لم يبعثوا لمجرد السؤال[٤]، لكنهم سألوا ليعرفوا عظيم قدرة الله فيزدادوا يقينًا في إيمانهم؛ إذ لبثوا مدة عظيمة من الزمان وهيئهم وثيابهم لم يتغيرا[٥]. فالمقصود من التساؤل إظهار القدرة الإلهية على الإنامة والبعث جميعًا[٦].

والتساؤل الذي حصل مداره أن واحدًا منهم قال: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩] فأجابه واحد منهم على سؤاله قائلًا: لبثنا يومًا؛ لأنه أطول مدة النوم المعهود، فلما رأى الشمس لم تغرب قال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم أنيموا أول النهار ونبهوا آخره[٧]. فكأنه حصل بينهم تنازع واختلاف في حقيقة مدة اللبث في الكهف.

وهذه الحالة مشابهة لقصة العزير، حين قال الله تعالى عنه: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

٢. السؤال عن ذي القرنين.

قال الله عز وجل في كتابه العزيز يصف ذي القرنين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٣-٨٥].

وفي الآية دلالة على أن القرآن العظيم لم يؤرخ لهذا الزعيم التقي الراشد، ولم يقم له تمثالًا، إنما ركز على الأوصاف التي تعني الحق وتعني الخلق. فيكفي أن نعلم أنه إنسان مكّنه الله في الأرض، يعني: أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة، وأعطاه من كلّ مقوّمات القوة: أعطاه المال والعلم والجيوش، فلم يكتف بذلك كله، بل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٤٥.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٥٩.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٧/ ١٥١.
(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٥٩.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٦/ ٤٣٤٦.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٢٩١.
(٧) النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٢٩٣.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٥].

يعني: أخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى الخير. من جهة أخرى فإن القرآن وهو يحدثنا عن شخصيات الأبطال في قصص؛ لم يهتم بمسألة تأريخ عريق لهذه الشخصيات، ولم يعطها أي نوع من الخصوصية ؛ بل أرادها أن تكون شخصيات عامة لتكون مثلًا يحتذى، ويتم بها الاعتبار، وتحدث الأثر المراد من القصة ، ولو تم تشخيصهم وتعيينهم لقال الناس: إنها حادثة خاصة بهؤلاء، أو أنهم نماذج لا تتكرر؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأسوة تسير في الزمان كله.

إن التمكين لذي القرنين كان بمنحه الأسباب التالية:

١. **التمكين بالعلم والتدبير وحسن التصرف:** أعطاه من العلوم ما يجعله قادرًا على استقراء سنن الأمم صعودًا وهبوطًا ، وزوده الله بعلم منازل الأرض وعرفه ألسنة الأقوام، فكان لا يغزو قومًا إلا خاطبهم بلسانهم ، ويقول خير يوسف: «أي جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار»[١].

٢. **التمكين بكثرة الأعوان والجنود وأسباب القوة:** إن التمكين بكثرة الجنود أسهم في إلقاء الرعب في نفوس الأعداء، الأمر الذي سهل لذي القرنين فتح المشرق والمغرب حتى خضعت له الملوك والشعوب ، وكانت العلاقة الطيبة بينه وبين الرعية أثر بالغ في تنفيذ المشاريع التي خطط لها من فتح البلاد وإقامة السدود وضرب الأعداء ،كما أن الله أكرم ذي القرنين حيث «مكن له في سياسة النفوس أفرادًا وجماعاتٍ تهذيبًا وتربية وانتظامًا»[٢].

٣. **التمكين في أسباب العمران والحضارة:** مكن الله لذي القرنين من خلال ما زوده به من قوة وعلم في بناء الحضارات، «فخطط للمدن وشق القنوات وبنى السدود ونمى الزراعة»[٣].

٣. السؤال عن موسى وصاحبه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى

(١) ذو القرنين، القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص٣٠٤.

(٣) المصدر السابق.

﴿نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٠ - ٦٥].

من الواضح أن موسى عليه السلام استخدم السؤال ليعرف مكان الخضر عليه السلام ويتعلم منه، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فمرّ بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ فقال أبي: نعم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه يقول: **(بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحدًا أعلم منك؟ فقال موسى: لا فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى عبدنا خضر. فسأل السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه... الحديث)**[1].

كما استخدم عليه السلام السؤال في اتباعه الخضر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

قال القرطبي في تفسير الآية: «هذا سؤال الملاطف المستنزل المبالغ في حسن الأدب، والمعنى هل يتفق لك ويخف عليك»[2].

وقد استخدم نبي الله موسى عليه السلام السؤال هنا لتحقيق أغراض ،منها: الاتباع، والتعلم الراشد.

إن طلب الخضر من نبي الله موسى عليه السلام أن لا يسأله عن شيء حتى يبينه له، يدل على أن السؤال من الوسائل المهمة لمعرفة أسباب القيام ببعض الأمور التي لا يرى لها حكمًا ظاهرة، فيجلي أسرارها وخفاياها.

كان السؤال وسيلة موسى عليه السلام الوحيدة التي استخدمها للتعبير عن إنكاره لما يجرى أمام عينيه، لأنه في تصوره تعدٍّ وظلم في الظاهر، ولهذا كثرت أسئلته الإنكارية التي أوردها القرآن كما جاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف:٧١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

فموسى عليه السلام بشخصيته التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، رقم ٧٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ١٧.

لا تتحمل القهر لم يصبر ، على تصرفات الخضر، أكثر من الأسئلة بطريقة منكرة، وهذا يدل على فاعلية السؤال وقوة تأثيره في القصة، إذ أثمر معرفةً وفهمًا وتفسيرًا لأمور كانت أسبابها غامضة وغير معروفة وغير ظاهرة للعيان.

وفعل موسى عليه السلام يدل على الآتي: على أنه لا ينبغي لأحد ترك طلب العلم والازدياد منه والرحلة فيه وإن كان قد بلغ فيه مبلغه ، ويدل على وجوب التواضع لمن هو أعلم منه[1].

وفي الآيات دلالات على أن الاشتغال بالنوافل وترك التعلم، يورث الجهل ، وهذا يتنافى مع مقصد الشريعة التي تأمر أصحابها بزيادة العلم، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجعل من دعائه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وقال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

وقال تعالى حاثا الأمة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢].

ومن دلالات الآيات أن موسى عليه السلام لما اجتمع بصاحبه، تواضع له كما يتواضع التلاميذ لأساتذتهم، واتبعه في صورة مستفيد منه، وهذا مما يدلّ على أنه نبيٌّ مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، لكن الله عز وجل قد خصّ صاحب موسى عليه السلام من العلوم اللدنيّة والأسرار النبويّة بما لم يطلع الله عليه نبيه موسى الكليم عليه السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦] دلالة على أن موسى عليه السلام أفضل من صاحبه، وأن الخضر لن يفضل موسى أبدًا، ومع ذلك لما آتاه الله شيئًا من العلم سأله سؤال المتأدب المتلطف معه.

وقد وجه القرآن الكريم المتعلمين إلى الحرص على السؤال والتعلم حتى لو كان من يتعلم منه أقل فضلًا ممن يتعلم، فنبي الله موسى عليه السلام كان حريصًا على التعلم من الخضر مع كونه أفضل منه.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

قال الرازي: «إن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه، ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له»[2].

قال الرازي: «اعلم أن هذه تدل على أن

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٦/ ٤٤٢٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ١٣٥.

موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب عندما أراد أن يتعلم من الخضر، حيث جعل نفسه تابعًا ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف:٦٦].

وثانيها :أنه استأذن في هذه التبعية، هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك ، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع»[١].

وأن الأمور لا تجري أو تقاس على حسب الظاهر منها، بل ربما يكون الأمر على خلاف الأمر الظاهر ، فلا نستعجل بالأحكام على الخلق ، وأن على المسلم أن يعتقد دائمًا أن هناك من هو أعلم منه، وهذا نتعلمه من موقف موسى عليه السلام حين سئل عن هذا الموضوع، فأجاب: ليس على الأرض من هو أعلم مني - ولم يستثن - ولم يقل: إن شاء الله ، فأوحى الله إليه أنه يوجد من هو أعلم منك في الأرض في مجمع البحرين.

ولقد دلت هذه القصة على مشروعية الصحبة في طلب العلم، وهذا ما فعله موسى عليه السلام حين خرج ومعه فتاه.

إن القرآن الكريم لم يخبرنا عن اسم صاحب موسى عليه السلام، لتبقى سلسلة المفاجآت المتوالية هي المسيطرة على هذا الجو الغامض الذي أحاط بسيدنا موسى عليه السلام، قال سيد قطب: «إنما يراد به أن يمثل الحكمة الكونية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة»[٢].

(١) المصدر السابق ٢١/ ١٣٧.

(٢) التصور الفني في القرآن، سيد قطب، ص١٨٤.

السؤال عن المخلوقات الكونية

في هذا المبحث سوف ينحصر الحديث عن سؤالين في القرآن الكريم، وهما سؤال عن الأهلة وسؤال عن الجبال، والمدقق يجد أنهما مخلوقات كونية لها تأثير بالغ في حياة الناس، وخصوصًا الهلال الذي عبر عنه بالجمع رغم أنه واحد، وذلك لعظم فوائده ، وملخص الأمر يدور على أن المرء لا بد أن يسأل عما ينفعه ويترك السؤال عما لا يعنيه. وهذا المبحث له مطلبان:

١ . السؤال عن الأهلة.

قال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

روي عن معاذ بن جبلٍ، وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثمّ يزيد؛ حتّى يمتلىء ويستوي، ويستدير، ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود كما بدأ، لا يكون على حالةٍ واحدةٍ؛ كالشّمس، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[(١)].

ثم معنى السؤال عن الأهلة : هو أنهم لما رأوا الشمس تطلع دائمًا على حالة واحدة، ورأوا القمر مختلف الأحوال فحملهم ذلك على السؤال عن حال القمر، فأخبر عز وجل أنه جعل الهلال معرفًا للخلق الأوقات ومعرفة وقت الحج ، وعدة النساء وتعرف الشهور، ورمضان ونعرف شهر الحج، وآجال العقود في البيع والإيجار، وسداد الديون وأوقات الزرع، إلخ، لأنه لو جعل معرفة ذلك بالأيام لاشتد حساب ذلك عليهم، ولتعذر معرفة السنين والأوقات بالأيام ، فجعل عز وجل بلطفه وبرحمته، الأهلة ليعرفوا بذلك الآجال، ويعرفوا وقت الزكاة؛ طلبًا للتخفيف والتيسير عليهم[(٢)]. وقيل: إنهم لمّا سألوا عن شيء قليل الجدوى أجيبوا بما فيه فائدةٌ، وعدل عن سؤالهم إذ لا فائدة فيه[(٣)].

وفي الآية دلالة على أن المرء لا بد أن يسأل عما ينفعه ويترك السؤال عما لا يعنيه. فالجواب عن الأهلة بهذا الشكل أفاد بأن السؤال عن سر الاختلاف، ليس فيه منفعة شرعية، وإنما ينبغي الاهتمام بما فيه منفعة دينية[(٤)]. وشاهده في السنة قوله صلى الله عليه وسلم: **(من حسن إسلام المرء تركه**

(١) انظر: أسباب النّزول، الواحدي، رقم ١٠٩، الدر المنثور، السيوطي ١/ ٤٩٠.

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٦٠.

(٣) غرائب التفسير، الكرماني ١/ ٢٠٢.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ٢٣٩.

ما لا يعنيه)[1]. كما أفادتنا الآية الشهور القمرية لها فوائد عظيمة، إذ بها تعرف كثير من العبادات، وما سمّي الهلال هلالًا إلا لأنه حين يرى يهل الناس بذكر الله[2]، وقيل: هو من البيان، أي: لظهوره وقت رؤيته بعد خفائه، ولذلك يقال: تهلّل وجهه: ظهر فيه بشرٌ وسرورٌ[3]. فالهلال ليلتان من أول الشهر أو ثلاث، وما بينهما «قمرٌ»[4]. ويقال له: «بدرٌ» من ١٢ إلى ١٤ [5]، ولقد جمع الهلال، رغم إفراده؛ اعتبارًا باختلاف أزمانه ، وعلى اعتبار أنه هلالًا في شهر غير كونه هلالًا في آخر[6]. إن مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية، وهذا الحكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل، عليها السلام ، فأما عند اليهود والنصارى، فليس الأمر كذلك، فالسنة عندهم شمسية.

ويؤيد هذا تجريد الجواب من كلمة قل التي ذكرت في مواقع السؤال من القرآن نحو: مع ما في هذا النظم العجيب من زيادة إخراج الكلام في صورة الحكم الكلي ؛ إذ جاء بحكم عام في سياق الشرط فقال: ﴿سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ ولو قيل: وليدعوني فأستجيب لهم لكان حكمًا جزئيًّا خاصًّا بهم، فقد ظهر وجه اتصال الآية بالآيات قبلها ومناسبتها لهن وارتباطها بهن من غير أن يكون هنالك اعتراض جملة»[7].

٢. السؤال عن الجبال.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

قال مقاتل: « نزلت في رجال من ثقيف[8] أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا يا محمد: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فنزلت هذه الآية »[9]. وزاد ابن عاشور فقال: «وثقيف أهل جبالٍ لأنّ موطنهم الطّائف وفيه جبل كرى، وسواءٌ كان سؤالهم استهزاءً أم استرشادًا، فقد أنبأهم اللّه بمصير الجبال إبطالًا لشبهتهم وتعليمًا للمؤمنين»[10].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ٢/ ١٣١٥.رقم ٣٩٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٢٧، رقم ٥٩١١.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ٨٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٣/ ٣٣٢.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١١٢.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٣/ ٣٣٢.
(٦) المصدر السابق.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ١٧٦.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٤١.
(٩) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٧٦.
(١٠) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٦/ ٣٠٧.

مقاصد السؤال وآدابه

أولًا: مقاصد السؤال:

يمكن تحديد مقاصد السؤال من خلال النقاط التالية:

١. التعنت.

وهو طلب العنت وهو المشقّة[١].

وقال ابن منظور: « أصل التعنت التشديد»[٢]، وإدخال المشقة والأذى على الغير[٣]. ومنه سؤال اليهود النبي الكريم عن الروح، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥].

حيث كانوا يقصدون من مسائلهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم المزلة والإنقاص. ولذلك يقال لكل من يتعنت في السؤال فإنه يطلب مزلته[٤]، وإيذاء المسؤول وإدخال المشقة عليه، ووضح كذلك من سؤال بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١].

فقد سألوه سؤال تعنت، لا سؤال مسترشد ، والأمثلة على التعنت كثيرة، ومنها ما فعلته قريش عندما طلبت من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات وآيات اقترحوها، ولو تدبرت قريش كلام الله لوجدوا في القرآن المسطور وفي الكون المنظور أضعافًا مضاعفة من هاته الآيات التي طلبوها.

قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

٢. الاحتجاج.

وهو الاستقامة في النّظر سواء كان من جهة ما يطلب معرفته أو من جهة غيره[٥].

وغالبًا يصدر عن المشركين، على خصمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجّة. ومثاله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٧].

والحجة من الاحتجاج، قال اللّه تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة:١٥٠].

وفي الآية: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]. أي: غلبني في الاحتجاج[٦].

(١) انظر: طلبة الطلبة، النسفي، ص٢٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٦١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٠٢.
(٤) شمس العلوم، الحميري، ٧/ ٤٨٠٠.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص٧٠.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٧٨.

ومن أضداده الاعتلال، وهو الاحتجاج بما ليس حجة[1]، وفي حديث الدّجّال: (إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه)[2]، أي: مغالبه بإظهار الحجّة عليه[3].

ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩].

قال ابن عطية: « سؤال موجه للرسل والهدف منه: « لتقوم الحجة على الأمم ويبتدأ حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور»[4].

يقول الماتريدي: « إنه سبحانه « يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى قومهم، ويسأل قومهم عن إجابتهم لهم؛ ليقطع احتجاجهم، وإن لم يكن لهم الحجاج»[5].

٣. الاستهزاء.

يقول الله تعالى مخبرًا عن استهزاء وسخرية كفار قريش من المؤمنين: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

وكسؤال المنافقين تهكمًا وتكبرًا وتبخترًا، ومثاله ما رواه البخاري عن أبي موسى، قال: (**سئل النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن أشياء كرهها، فلمّا أكثر عليه غضب، ثمّ قال للنّاس: (سلوني عمّا شئتم) قال رجلٌ: من أبي؟ قال: (أبوك حذافة) فقام آخر فقال: من أبي يا رسول اللّه؟ فقال: (أبوك سالمٌ مولى شيبة) فلمّا رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول اللّه، إنّا نتوب إلى اللّه عزّ وجلّ**)[6].

وتعليق الاستهزاء بالله عز وجل مجازٌ جلّ ربّنا عن الاستهزاء ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥] أي: يجازيهم على استهزائهم..

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

أورد الطبري بسنده عن قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، قال: **بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها! فأطلع الله نبيه**

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٠٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم٢٩٣٧.
(٣) تاج العروس، الزبيدي، ٥/ ٤٦٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٥٦.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٦٤٦.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتّعليم إذا رأى ما يكره، رقم٩٢.

صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: عليّ بهؤلاء النفر! فدعاهم فقال : (قلتم كذا وكذا) ! فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب![1].

٤. الاسترشاد.

أصله أن يسأل الرجل من يرشده، وهذا مقصد المؤمن من أسئلته، فمقصده من سؤاله الاسترشاد، ومعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى، وأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم في المسائل ليعمل بها ، ومثّلوا لسؤال الاسترشاد الذي من هذا القبيل بسؤال الملائكة إذ قالوا لربّهم كما جاء في سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

وقد يطرح المتكلم سؤالًا استفهاميًّا ظاهره يشعر بالاستشكال أو الاعتراض، وغرضه الاسترشاد، ويمكن أن نعتبر من الأمثلة على هذا أسئلة موسى للخضر في اعتراضاته على تصرّفاته، كما أبان الله لنا في سورة الكهف، ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف:٧١].

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣٤.

٥. التقرير.

وهو تحصيل ما لم يصرح به القول[2]، يراد منه أن يكون المسؤول متيقظًا لما يراد به من الاطلاع عليه، كما قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه:١٧][3]. ومنه الطلب من القوم الإقرار بالشيء.

قال الماتريدي: «وهو كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

هذا السؤال تقريري لا غير؛ لأنه كان يعلم أنه لم يقل لهم ذلك، لكنه سألهم تقريرًا؛ ليقروا بذلك؛ لئلا يقولوا: هو قال لهم ذلك»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزخرف:٤٩] أسلوب إنشائي في صورة نداء غرضه التقرير. وكقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

٦. الامتحان.

وهو من المحن[5]، وهو الاختبار.

قال تعالى: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]. وذلك حتى تظهر حال المسؤول على

(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ص٦٤.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٢٤٨.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٣٦٠.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٢٤٨.

حقيقتها فيعترف بقصوره عن الإحاطة بالأشياء، كفعل الملائكة عند قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[البقرة:٣١].

بقولهم: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢][١].

٧. التعجب والبراءة.

وهو استعظام شيء زائد على غيره لمزيّة فيه[٢]، وذلك حين يكون السؤال بريئًا غير موجه بهدف أو مقصد، وليس المقصود منه الإساءة والشتم والإغاضة، بل المقصود الإيضاح حول موضوع معين تعجب منه. ومن التعجيب قوله جلّ ثناؤه: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة:٢٨].

وكذلك يمكن تمثيله بسؤال زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام حين وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾ [آل عمران:٣٧].

فعندها قال زكريا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:٣٧].

ومثله كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾ [يس:٧٧].

(١) شمس العلوم، الحميري، ٩/ ٦٢٣٨.
(٢) اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، محمد علي السراج، ص١١٨.

يقول الواحدي: «ألا يرى أنه مخلوق من نطفة، ثم هو يخاصم! وهذا تعجيب من جهله، وإنكار عليه خصومته، أي: كيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع خصومته»[٣].

ومعنى الكلام: التعجّب من جهل هذا المعاند الألد المكابر المخاصم في إنكاره البعث ، فالكلام يفهم حالة من التّعجيب الشديد من تطوّر الإنسان من أمهن حالةٍ إلى أبدع حالةٍ ، وهي حالة الخصومة والإبانة النّاشئتين عن التّفكير والتّعقّل، والدّلالة على كفرانه النّعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه[٤].

ثانيًا: آداب السؤال:

هناك عدد لا بأس من الآداب تتعلق بالسائل تجاه المسؤول، نختار منها الآتي:

١. مراعاة المناسبة وعدم إيذاء العلماء بمضايقتهم في أوقاتهم وحسن اختيار مكانه.

فاختيار الوقت ومكانه الذي يتفرغ فيه المسؤول أمر في غاية الأدب، فلا تشغل المفتي وهو مشغول أو نائم ، فيتصل به تلفونيًا قبل الفجر أو بعده ، فهذا لم ترع المناسبة والأعراف ، لهذا أدبنا الله عز وجل أن نستأذن قبل أن نلج الأماكن الخاصة بالآخرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(٣) الوسيط، الواحدي، ٣/ ٥٢٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ١٠٣.

لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور:٥٨].

٢. أن يكون السؤال استفهاميًّا وليس إنكاريًّا أو تعجيزيًّا.

ولهذا كانت أسئلة الصحابة للنبي الكريم ضمن الأسئلة الاستفهامية وليس التعجيزية، ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤].

٣. معرفة مقام من تسأل، فإن غاب عن السائل مقام المسؤول ربما قل أدبه، وكان سؤاله تعجيزيًّا.

ولو كانت يهود أو قريش تعرف مقام ربها ومقام نبيها ما سألت رسول الله إنزال كتاب من السماء، ولهذا جاء الخطاب القرآني مستهجناً هذه الطريقة في السؤال، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣].

٤. الاختصار في السؤال.

وهو مستنبط من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة:١٢].

وقت النبي الكريم ليس كوقت واحد من المسلمين، فإن كثرت المناجاة وكثرت المسائل زاد التكليف وعظمت المشقة، ولهذا كان لا بد من منهج يحدد التعامل مع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في عرض المسائل، قال فخر الدين الرازي، « قال ابن عبّاس: إنّ المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتّى شقّوا عليه، وأراد اللّه أن يخفّف عن نبيّه، فلمّا نزلت هذه الآية شحّ كثيرٌ من النّاس فكفّوا عن المسألة »[1].

٥. جمال العبارة والأسلوب اللطيف.

لا بد للسائل أن تكون عبارته جميلة ومحتشمة مليئة بالتلطف والأدب، وتراعي نفسية المسؤول، وفيها هيبة للعالم الذي يسأل، وخالية من العبارات السوقية ، بل ينادي المفتي بم يليق به من مقام، وقد كان موسى عليه السلام في غاية التلطف عند سؤال الخضر في اتباعه والتعلم منه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٤٩٥.

٦. الوضوح وتجنب الغموض والإبهام في السؤال.

ففي أحيان كثيرة، يكون السؤال غامضًا غير واضح في طرحه، مبهم في إلقائه مما يؤدي إلى إحراج المسؤول. لأنه قد يجيب عن شيء غير ما قصده السائل، فعندها يقول: سألت العالم الفلاني فأجابني عن مسألتي بالطريقة التالية، لكن قصد المسؤول كان غير قصد السائل فيكون التباسًا للجميع ، وهذا مأخوذ من سؤال يهود النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عن الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

فالروح كما نعلم موجود خفي، والسؤال عنه بهذا الشكل أمر غير لائق ؛ لأنه غامض بل في غاية الإبهام، ولذلك كان القصد منه تعجيزي بحت.

٧. أن لا يضرب أقوال أهل الذكر من العلماء بعضها ببعض.

فهو يسمع من واحد، فيجيبه، فلا يقتنع ثم يسأل عالمًا آخر، فيجيبه ربما بجواب آخر مخالف تماماً للأول، فعندها يقول إن فلانا أعلم من فلان، وينسى أن المسألة فيها نظر وخلاف، وأن الصحابة الثقات العدول اختلفوا مع بعضهم البعض ، ويمكن أخذ هذا الأدب من قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة:١٠٨]

٨. أن يكون الهدف من السؤال الاسترشاد وفهم الحكم الشرعي المتعلق بموضوع السؤال.

وهذا مستنبط من سؤال الصحابة رضي الله عنهم نبيهم الكريم عن الخمر والميسر، وغيرها من الأسئلة ذوات الأحكام المفيدة ، والتي لها تعلق في حياتهم؛ كقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة:٢١٩].

٩. أن تكون نية السائل خالصة لوجه الله الكريم، يطلب فيه زيادة في التعبد واستزادة في العلم.

وذلك من باب قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فلا بد أن يكون السؤال عبادة لله عز وجل وليس امتحانًا أو اختبارًا أو إيقاعًا في ورطة أو تشهيرًا...إلخ.

١٠. أن يمتلك السائل صبرًا جميلًا وحسن استماع للمسؤول العالم، وخصوصًا إذا أجابه المفتي بعكس ما كان يتوقع، فعليه أن يصبر بل يدعو للمفتي بكل خير ويشكره.

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾[الكهف:٧٠] أي: « لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف:٧٠] أي: حتى أبتدأ ببيانه، وفيه إيذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة، وهذا من أدب المتعلم مع العالم»[١].

١١. أن يتورع السائل عن الأسئلة التي لا يحتاجها، والتي لا تنفعه بشيء من أمر دينه ودنياه.

ويركز على الأسئلة الخاصة به ، والتي تزيد من إيمانه وعمله وتحسن من سلوكه ومعاملاته وإنتاجه، وليعلم أن حسن السؤال نصف العلم. وهذا مستنبط من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١].

وهذه الآية أصل في النهي عن كل سؤال فيه تعنت وتكلف ما يعني، قال الصابوني: «أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها ، إن ظهرت لكم ساءتكم»[٢].

ففي الآية نهي وتحذير من الله عز وجل للمؤمنين عن أشياء لا يطيقونها أو أن يسألوا عن أشياء قد نهوا عنها أو لا يعلمونها كسؤال النصارى عيسى أن ينزل ربنا عليهم مائدة من السماء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك أهل الكتاب قبلكم أو من كان قبلكم بكثرة اختلافهم على أنبيائهم، وكثرة سؤالهم)[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

وقد أورد صاحب الزوائد بابًا أسماه: باب سبب النهي عن كثرة السؤال: عن سعدٍ قال: كان النّاس يتساءلون عن الشّيء من أمر النّبيّ صلى الله عليه وسلم يسألون رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهو حلالٌ، فلا يزالون يسألون فيه حتّى يحرم عليهم[٤].

وعن الزّهريّ قال أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقّاصٍ عن أبيه: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ أعظم النّاس في المسلمين جرمًا من سأل عن مسألةٍ لم تحرّم فحرّم على المسلمين من أجل مسألته)[٥].

موضوعات ذات صلة:

الاستعانة، الاستغاثة، الدعاء، الشك، العلم

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٣٥.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٣٤٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ٢/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧.
(٤) أخرجه البزّار في مسنده، ٤/ ٦٢، رقم ١٢٢٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٨.